الجدلية والتسليم في الدلالة على وجود اللّه بين أهل السنة ومخالفيهم (العقل نموذجاً)

تأليف رئيس المجموعة البحثية

أ.د. صفوان أحمد مرشد حمود[1]

الملخص

تناول البحث الموسوم بـ (الجدلية والتسليم في الدلالة على وجود الله بين أهل السنة ومخالفيهم)، دليل العقل كمصدر من مصادر الاستدلال على وجود الله تعالى، الذي تجاذبه الجدل من وجه والتسليم من وجه آخر بين الفرق الإسلامية، وجاء ذلك في مبحثين الأول: تناول الإيمان بوجود الله، وتناول المبحث الثاني أدلة ذلك الوجود، وما حصل فيها من جدل في المقدمات وتسليم في النتائج.

ويهدف البحث إلى بيان مكانة العقل كمناط للتكليف، وطريق من طرق الدلالة وحدود الاستدلال به في تقرير العقائد. وتحرير محل النزاع في مرتبة الاحتجاج به، والعلاقة بينه وبين النص. وتجلية منهج أهل السنة ومناهج المخالفين في تقرير ما يتعلق بالمصدرية والحجية. وقد سلكت المنهج التحليلي؛ للوصول إلى النتائج ومنها: أن العقل والنقل الأصل فيهما التوافق، والفطرة لا تخرج عنهما، وهذه الأدلة متظافرة غير متنافرة. والعقل ليس قسيمًا

(١) أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بقسم أصول الدين- كلية الشريعة وأصول الدين، جامعة نجران

يتقدم المؤلف بالشكر لعمادة البحث العلمي بجامعة نجران على تمويل هذا العمل في إطار تمويل المجموعات البحثية
رمز المشروع (NU-RG-SEHRC-12-8)

للشرع بل يندرج ضمن أدلته المعتبرة، وكذلك الفطرة والحس، وطريقة القرآن الكريم لم تهمل العقل بل استثارت مداركه للوصول للإيمان، ولا يصح تجريد العقل عن النقل ولا استبعاد النقل للعقل.

وأصى الباحث بضرورة دراسة مصادر التلقي والاستدلال، والوقوف على مواطن التسليم والجدل عند الفرق والمذاهب، وبيان أثر الخلاف في ذلك على قضايا العقيدة الأصلية والتفصيلية.

الكلمات المفتاحية للبحث: (منهج ـ الاستدلال ـ السلف ـ المتكلمين ـ العقل).

Abstract

The study is titled "Dialectics and Submission in Signifying the Existence of Allah among Sunni Scholars and Their Opponents." It examines the intellect as a source of evidence for the existence of Allah, which has been debated and accepted differently among Islamic sects. The research is divided into two sections: the first discusses faith in the existence of Allah, while the second presents evidence of this existence, reflecting both debate in the premises and acceptance in the conclusions.

The research aims to highlight the role of the intellect as a means of religious obligation, a method of inference, and the limitations of using it to determine beliefs. It also addresses resolving conflicts in the hierarchy of argumentation, the relationship between the intellect and religious texts, and clarifies the methodologies of Sunni scholars versus dissenting groups regarding authenticity and validity.

An analytical approach was employed. The results indicated that intellect and revelation fundamentally align, and innate disposition does not contradict them. These pieces of evidence converge rather than conflict. The intellect is not separate from religious law but is part of its credible evidence, similar to innate disposition and perception. The methodology of the Holy Quran does not neglect the intellect but stimulates its faculties to guide towards faith. Disregarding revelation from the intellect or excluding the intellect from revelation is deemed inappropriate.

The researcher emphasizes the necessity of studying sources of reception and inference, understanding positions of acceptance and debate among sects and schools of thought, and explaining the impact of these disagreements on fundamental and detailed doctrinal issues.

Keywords: Methodology, Inference, Salaf, Theologians, Intellect.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وبعد:

ففي إطار المشروع البحثي المقدم إلى عمادة البحث العلمي بجامعة نجران، والذي حمل اسم: **مصادر التلقي والاستدلال بين الجدلية والتسليم عند أهل السنة ومخالفيهم (العقل وخبر الآحاد نموذجًا)**

فقد رأيت الكتابة تحت عنوان: **الجدلية والتسليم في الدلالة على وجود الله بين أهل السنة ومخالفيهم (الاستدلال بالعقل نموذجًا)**

وذلك لما يمثله العقل من مدار للتكليف يتوقف عليه فهم خطاب الشارع، ولكنه لا يستقل عن أنوار الوحي التي تهديه للحق، وبدونها لا يمكنه استجلاء الطريق إلى الله تعالى ولا الوصول لمراده ومعرفة شرعه، وقد وقع بين الفرق والمذاهب الإسلامية التسليم في جوانب واحتدم الجدل في جوانب أخرى تتعلق بمصدرية العقل للأحكام ومرجعيته في الاحتكام، وسلامة مسالكه في الاستدلال على الغيبيات، ورتبته في ذلك بين الأدلة الشرعية، وعلاقته بالنقل وأيهما المقدم إن لزم التقديم ولم يمكن الجمع بين الدلالتين العقلية والنقلية، فجاءت فكرة البحث لتبين طرفًا من ذلك الارتباط والتلازم.

أهداف البحث

١. يهدف البحث إلى بيان مكانة العقل كمناط للتكليف، وطريق من طرق الدلالة وحدود الاستدلال به في تقرير العقائد.
٢. تحرير محل النزاع بين الفرق الإسلامية في مرتبة الاحتجاج بالعقل، والعلاقة بينه وبين النص.
٣. تجلية منهج أهل السنة والجماعة ومناهج المخالفين لهم في تقرير ما يتعلق بالمصدرية والحجية.

مشكلة البحث: يجيب هذا البحث عن تساؤلين

الأول: هل وقع الخلاف بين الفرق الإسلامية في حجية ودلالة العقل على وجود الله تعالى، كقضية كبرى يقوم عليها الإيمان بأركانه الستة؟

الثاني: العلاقة بين العقل والنقل التكامل أم التضاد؟ وهل خلى النقل من الدليل العقلي؟ وهل يستغني العقل عن النقل في طريقة ومنهج الاستدلال الصحيح.

أهمية البحث

تظهر أهمية البحث من أهدافه ومشكلته البحثية التي ستتناول مواطن الجدل ومواطن التسليم بين الفرق الإسلامية بمناهجها السلفية الأثرية، ومناهجها الكلامية، في قضية وجود الله تعالى، وبيان التوافقات والاختلافات الكلية والجزئية بين أهل السنة ومخالفيهم، وثمرة ذلك وأثره في باب الدراسات العقدية.

الدراسات السابقة

هناك عدد من الدراسات العامة التي تناولت العقل ومكانته ودوره في مصادر التلقي والاستدلال، ولم أقف في هذا العنوان الذي اخترته على دراسة علمية، خاصة، والله أعلم.

منهج البحث

سلكت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي؛ من خلال قراءة النصوص وبيان مذاهب أهل السنة ومخالفيهم، واستفدت من المنهج الاستنباطي في تحرير محل النزاع والاختيار والترجيح.

خطة البحث: تضمنت الخطة البحثية مقدمة ومبحثين، وأربعة مطالب:

المبحث الأول: الإيمان بوجود الله، وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: الإيمان بوجود الله عند سائر البشر.

- المطلب الثانـي: الإيمـان بوجود الله تعالى عند أهل القبلة.

المبحث الثاني: أدلة وطرق إثبات وجوده سبحانه وتعالى، وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: طرق إثبات وجود الله عند المتكلمين والسلف.
- المطلب الثاني: منهج القرآن في الاستدلال بالآيات الكونية لإثبات وجود الله.

المقدمة

إن من أعظم القضايا في هذا الوجود قضية الإيمان بالله تعالى فهي الركن الأساس الذي ترجع إليه باقي أركان الإيمان الخمسة؛ فالملائكة رسله وما أرسلهم به من الوحي كلامه ووحيه، والكتب المنزلة كتبه سبحانه، والأنبياء والرسل رسله إلى خلقه، واليوم الآخر يوم الدين والجزاء والحساب عنده وهو مالكه ومرجع الأمر كله إليه قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق : ٨]، ومقاليد السماء والأرض وما يجري فيهما قضاؤه وقدره، أمضاه بإرادته المطلقة في خلقه، ولن ينفع الإيمان صاحبه إذا لم ينبثق من ركن التصديق الجازم بالله جل جلاله، وينطلق من عمق التوحيد الخالص له سبحانه رباً خالقاً وإلهاً مالكاً ومعبوداً متفرداً بصفات الكمال وأسماء الحسن والجلال.

ومما تقتضيه الضرورة الفطرية والعقلية والشرعية أن يكون هذا الركن محل تسليم بين سائر أهل الأديان السماوية كقاسم عقائدي كلي مشترك، فضلًا عن تسليم أهل الإسلام قاطبة بمختلف فرقهم ومشاربهم ومذاهبهم، إلّا أن ثمة نزاع طرأ على مصادر التلقي والاستدلال على هذا الركن الهام كغيره من قضايا الغيبيات التي تناولتها الأديان، ومن هذا المنطلق سيتناول البحث جوانب الجدلية والتسليم عند أهل السنة والجماعة ومخالفيهم في مصادر التلقي والاستدلال في هذا الركن الأعظم من خلال أربعة مباحث:

المطلب الأول: الإيمان بوجود الله عند سائر البشر

الإيمان بوجود الله تعالى أساس مسائل العقيدة كلها، وعنه تتفرع بقية الأركان الاعتقادية التي يجب إنهاض العقل للتأمل فيها ثم الإيمان بها.

وهذه القضية الأساس ليس فيها خفاء ولا التباس على جميع أهل القبلة بمختلف

فرقهم، بل على جميع الناس بمختلف مللهم ونحلهم، وإن اختلفت بعد ذلك معبوداتهم؛ فالكل يؤمن بوجود قوة كبرى، وسلطة عليا تحكم هذا الكون وتسيطر على هذا الوجود الحادث، بإرادة الخالق الموجِد الحكيم سبحانه المتصرف في جزئيات الكون قبل كلياته، بناءً وفناءً، حركة وسكوناً، تغييراً وتطويراً، بحكمة فائقة ونظام دقيق لا يمكن للعين الباصرة ولا للعقول الناظرة أن تجحده أو تنكره.

وبعيداً عن نهج الوحي الإلهي والهدي الرباني، اختلفت تسمية الإنسان لهذه القوة المهيمنة الغالبة، النافذة إرادتها على كل شيء موجود في هذا الوجود، فسماها بعضهم "بالعلة الأولى" وسماها البعض الآخر "بالعقل الأول" وسماها فريق ثالث "بالمحرك الأول"، حتى جاء الوحي من السماء إلى رسل الله في الأرض بالاسم الأعظم الجامع لصفات الجمال والجلال، والتعظيم والكمال وهو "الله" الحق المبين سبحانه عما يشركون ويلحدون.

إن وجود الله تعالى هو أعظم قضايا الوجود ظهوراً، وما يشاهد من حقائق الكون إنما هو أثر لتلك الحقيقة الكبرى، وكل وجود و حقيقة لا تعتمد على وجوده سبحانه فثبوتها في الواقع محال، وإثباتها في المعقول وهم وخيال، لأن نفي وجود الفاعل نفي للمفعول. قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] أي الذي لا يخفى إثبات وجوده على أي عاقل، وقوله ﷺ في الحديث (أنت الحق): أي واجب الوجود[١] بمعنى لا يفتقر وجوده سبحانه إلى شيء. و"الحق من أسمائه تعالى، وهو بمعنى الموجود الكائن الذي ليس بمعدوم ولا منتف"[٢].

"وقلما توجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الإله تعالى، ولذلك قال تعالى في صفة الكفار: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان: ٢٥]"[٣].

(١) حاشية السندي على النسائي، ٣/ ٢١٠.
(٢) في كتابه "شرح أسماء الله الحسنى" للقشيري، ص٢٠٠.
(٣) ينظر: التفسير الكبير للرازي، ١٨/ ٩.

فلا ينكر وجود الله عاقل سوي الفطرة، يقول تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. والاستفهام الإنكاري لتأكيد أن وجود الله تعالى قطعي لا يحتمل الشك[١]، "وأتبع اسم الجلالة بالوصف الدال على وجوده وهو وجود السموات والأرض، الدال على أن لهما خالقاً حكيماً؛ لاستحالة صدور تلك المخلوقات العجيبة من غير فاعل مختار، وذلك معلوم بأدنى تأمل"[٢].

وذهب معجم (لاروس) للقرن العشرين: إلى "أن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية... وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية"[٣].

و"هذه الغريزة الدينية لا تختفي، بل لا تضعف ولا تذبل إلا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليل جداً من الأفراد"[٤].

ويقول هنري برجسون: "لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات[٥]، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة"[٦].

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم الزمخشري، ٢/ ٥١٠.

(٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، ١٢/ ٥١٠، مؤسسة التاريخ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(٣) Laresusse duxxeme siecle, article: Religion.

(٤) المرجع السابق، ص٨٣.

(٥) وجود جماعات إنسانية بلا علوم ولا فنون ولا فلسفات صحيح من حيث التدوين لتلك العلوم والفلسفات والفنون وإضافتها إلى رصيد التراث الحضاري للمجاميع البشرية، أما من حيث الواقع فلا أظن ذلك يصح خاصة وأن لكل مجموعة بشرية خصوصيتها في حياتها، وطريقة عيشها، وتفسيرها لما حولها، ولو كان رديئاً أو بدائياً، إلا أنه يمثل فلسفة ورؤية لهذه المجموعات التي بادت وباد تاريخها ولم يدون ولم يحفظ.

(٦) B.S.t. Hilaire, Mahomet et le Coran, P xxxiv .

كما يقول الدكتور (ماكس نوردوه): عن الشعور الديني: "هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدن، كما يجده أعلى الناس تفكيراً، وأعظمهم حدساً، وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية، وستتطور بتطورها، وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة"(١).

إن أصحاب النظرية المادية الإلحادية لن يثبتوا في ظني أمام دواعي الفطرة السوية، ومقتضيات العقول المرضية. وبهذا العرض الموجز يتبين إجماع الأمم والشعوب على التدين وعلى وجود إله تتعلق به النفوس بالعبادة والتعظيم، والافتقار والعجز.

ويبقى البحث عن الطريق الصحيح للوصول إليه والتعرف عليه، بنمط استدلالي يعزز الفطرة الإنسانية ونداءها القهري في نفوس الأسوياء، وهو ما سيتناوله المبحث التالي.

المطلب الثاني: وجود الله تعالى عند أهل القبلة

سائر طوائف أهل الإسلام مجمعة على وجوده عز وجل وثبوت ذلك وتحققه، وليس من خلاف في هذا بين الفرق الإسلامية؛ لأن المخالف في هذا يكفر بالإجماع.

و"المطالب التي في القرآن معظمها الأصول الثلاثة، التي بها يصح الإسلام ويحصل الإيمان، وهي: معرفة الله، والاعتراف بصدق رسوله، واعتقاد القيام بين يدي الله تعالى، فإن من عرف أن الله واحد، وأن النبي صادق، وأن الدين واقع صار مؤمناً حقاً، ومن أنكر شيئاً منها كفر قطعاً"(٢).

والوجود المقصود به ما ينافي العدم، وينقسم إلى وجود ذاتي غير مفتقر في الاتصاف به إلى علة تؤثر فيه الوجود، وهذا الوجود الكامل المتعلق به سبحانه، ولا يكون إلا لله وحده لا

(١) Max Nodau, Reponse au Mercure de France, Paris, 1908 .

(٢) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، ٢/ ٤٢٤.

شريك له، وأما ما عداه فوجوده تبعي يفتقر إلى علة تؤثر فيه الوجود، وتلك العلة هي إرادة الله وأمره الكوني.

قال الإمام الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾: "اعلم أن الموجود إما أن يكون واجباً لذاته وإما أن يكون ممكناً لذاته. أما الواجب لذاته فهو الله تعالى فقط، وأما الممكن لذاته فهو كل ما سوى الله تعالى وهو العالم"(١).

وساق الشنقيطي في أضواء البيان كلاماً للقاضي عياض رأى وجاهته في بابه فقال: " ومراده بالعقليات في العقائد أي إثبات وجود الله، وأنه واحد لا شريك له، وهو المعروف عندهم بقانون الإلزام، الذي يقال فيه إن الموجود إما جائز الوجود أو واجبه، فجائز الوجود جائز العدم قبل وجوده، واستوى الوجود والبقاء في العدم قبل أن يوجد، فترجح وجوده على بقائه في العدم، وهذا الترجح لابد له من مرجح وهو الله تعالى.

وواجب الوجود لم يحتج إلى موجد، ولم يجز في صفته عدم، وإلاّ لاحتاج موجده إلى موجد ومرجح وجوده إلى موجد. وهكذا فاقتضى الإلزام العقلي وجوب وجود موجب واجب الوجود، وهذا من حيث الوجود فقط"(٢).

وقد حصل الجدل في جواز إطلاق اسم الموجود على الله تعالى بين أهل السنة ومخالفيهم، كما **حكاه ابن الزاغوني قال:** "فصل: الباري تعالى موجود: وهو قول عامة أهل الإثبات، وذهب نفاة الصفات إلى أنه لا يوصف بأنه موجود، بل يقال ليس بمعدوم"(٣).

ثم ساق ردوده على المعتزلة ومن وافقهم من جهمية الصفات، وليس هذا موطن تحريرها. ولابد من استبانة ووضوح مراد المعتزلة في عدم وصف الباري سبحانه

(١) التفسير الكبير، ١/ ١٨٦.
(٢) أضواء البيان للشنقيطي، ٨/ ١٤٨.
(٣) الإيضاح في أصول الدين لأبي الحسن بن الزاغوني، ص٢٥٣.

وتعالى بأنه موجود، فهم قطعاً لا ينكرون وجوده سبحانه ولا يختلفون مع سائر أهل القبلة في ثبوت وجوده سبحانه، وإنما خلافهم من حيث اللفظ المستعمل لإثبات صفة الوجود، وجواز إطلاقه على الله عز وجل لإثبات الصفة، فوجوده عندهم ثابت ولكنهم لا يعبرون عنه بلفظ (الموجود)، بل يعبرون عنه بلفظ (ليس بمعدوم)، وسبب ذلك المنع عندهم أن الوجود كون يشبه الفعل، فيفتقر إلى فاعل، وهذا محال قطعًا في حق الله تعالى الموصوف بالصمدية والغنى[١].

ويجاب عن استشكال المعتزلة: بأن وجود الباري سبحانه وتعالى وصف ذاتي له ولم يثبت لعلة، ولا لسبب مما تشاهدونه في عالم المشاهدة والحضور. وكما أن ذاته موصوفة بالأولية المطلقة التي لم يسبقها سابق، ولم يتقدمها متقدم، ولم يشاركها في كونها ثابتة لنفسها غيرها، فلا يصح قياس غيرها عليها، ولا قياسها على غيرها من المحدثات المفتقرة في وجودها إلى سبب وعلة تؤثر في إيجادها؛ لأن هذه الإضافة دليل الافتقار وعدم الغنى وهو سبحانه منزه عن هذا النقص فقد وصف نفسه بالصمدية فقال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٢، ٣]"[٢].

ويجاب أيضًا بأن لفظ الوجود في أصل اللغة مصدر وجدتُ الشيء أجده وجوداً، ويراد به تارة المصدر الذي هو الأصل، وتارة المفعول أي الموجود، وهو أسلوب عربي لا يخفى[٣].

وإذا كان هذا التجرد عن المعنى الزائد عن الكون والوجود المقابل للعدمية حاصلاً في الإطلاق، وجرى به الاستعمال، ولم يحصل به استشكال، زال ما يتوهم من نقص في حق الله تعالى من هذا الوجه.

(١) المرجع السابق بتصرف واختصار ص٢٥٣.
(٢) المرجع السابق ص٢٥٤.
(٣) ينظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية، ١/ ٣٢٨، ٣٢٩.

ومن وجه ثان يقال: إن وجود الموجودات افتقاري أما وجود الله تعالى فذاتي منه -سبحانه- على غير مماثلة بينه وبين خلقه، ووجود الله لا يسبقه عدم ولا يلحقه فناء بخلاف غيره.

فإطلاق القول بأن الله تعالى موجود هو من باب حكاية الصفة التي لا تُشْعِرُ بالنقص، ومؤدى الخلاف في هذا الباب لفظي كما تراه إذ لو قيل للمعتزلة تثبتون لله وجوداً أو عدماً لقالوا: بل نثبت له وجوداً ونعبر عنه في إطلاقنا بالقول: ليس بمعدوم.

وهذا من الخلاف اللفظي لا الحقيقي، والخلاف حول الأولى في الإطلاق لا يعني المخالفة في المعنى والمضمون، ولا عدم الاتفاق في أصل المسألة، بل الاتفاق على أصل المسألة واقع قطعاً بلا خلاف.

المبحث الثاني

أدلة وطرق إثبات وجوده سبحانه وتعالى

المطلب الأول: طرق إثبات وجود الله عند المتكلمين والسلف

تمهيد: أدلة وجود الله عز وجل وانحصارها

اعتنى علماء المسلمين من مختلف الفرق والطوائف بإثبات وجود الله تعالى بالأدلة القاطعة، ولم ينازع أحد في وجوب معرفته سبحانه وتعالى، ووجوب معرفة أدلة وجوده ووحدانيته، وهو أصل عظيم من أصول الاعتقاد، وقع الجدل في جوانب تفصيلية فيه؛ تتعلق بترتيب الأدلة، وبحسب اختلاف الأحوال اختلف المقال وكله دائر في فلك الاستدلال على وجوده تعالى، ثم على طرق الوصول إلى تلك المعرفة.

والآيات الدالة على وجود الله سبحانه وتعالى كثيرة لا حصر لها في العدد، ولا يمكن الإحاطة بها تفصيلاً، **قال الرازي:** "لأن ما سوى الله تعالى فهو آيات وجود الله تعالى، وآيات صفات جلاله وإكرامه، وكبريائه، وآيات وحدانيته، وما سوى الله فلا نهاية له[1]، وما لا نهاية له فلا سبيل للعقل في الوقوف عليه على التفصيل التام، إلاَّ أن الممكن هو أن يُطلع على بعض الآيات، ويتوسل بمعرفتها إلى معرفة الله تعالى ثم يؤمن بالبقية على سبيل الإجمال"[2].

والطرق الإجمالية أربع وهي: طريق الفطرة، وطريق النقل، وطريق العقل، وطريق الحس، ويمكن رجوع الحس إلى المعقول فتكون الطرق بهذا ثلاثاً، ويمكن إرجاع الفطرة إلى

(١) في هذا الإطلاق إشكال فلا بد من حمله على أن ما سوى الله من حيث الحصر والإدراك بالنسبة لنا لا يمكن الوقوف عليه كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهَّ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَّ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة النحل الآية: ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدثر من الآية: ٣١]. وكذلك يمكن القول أن ما سوى الله من مخلوقاته التي كتب لها البقاء والخلود كالجنة والنار، فهي خالدة بأمره ولا نهاية لها.

(٢) التفسير الكبير، ١٣/ ٣، عند تفسيره للآية (٥٤) من سورة الأنعام.

النقل فتكون الطرق اثنتين عقلية ونقلية ولا مشاحة في التقسيم.

أولاً: طريقة المتكلمين لإثبات وجود الله تعالى

اعتمد المتكلمون العقل طريقًا لإثبات وجود الله تعالى، والنظر الموصل للمعرفة أوّل واجب على المكلف فعله عندهم، دون إنكار منهم للبراهين القرآنية الدالة على وجود الله، لأنهم يرونها جاءت تخاطب العقل بطريقة منطقية، كما عبّر عنه ابن رشد[١]، **وحكى الإيجي**[٢] **والتفتازاني اتفاق المسلمين على وجوب معرفة الله تعالى بالنظر،** معللين ذلك؛ بكونه مقدمة مقدورة للمعرفة الواجبة مطلقاً[٣].

وذهبت الدكتوره رابحة -الدراسة المتخصصة في فكر القاضي عبد الجبار- إلى أن الدلالات عند القاضي أربع: الأولى هي صحة العقل، والثانية: هي الكتاب، والثالثة، السُّنة، والرابعة: هي الإجماع.

ولكنه أوضح أن معرفة الله تعالى لا تنال إلاَّ بحجة العقل، وما عداها فهو فرع عليها، فالمستدل بشيء منها كالمستدل بفرع الشيء على أصله[٤].

ويقوم رأي القاضي عبد الجبار على أساس الرفض التام لاعتماد أي طريق، أو مبدأ في معرفة الله تعالى غير التفكر والنظر، إذ يعتبر النظر هو الطريق الوحيد لمعرفة الله تعالى؛ لذلك رفض كل ما عداها من الطرق، كالضرورة أو المشاهدة، والطرق الاتباعية كالتقليد والنقل، وساق القاضي لإثبات نظريته الحاصرة جملة من الحجج الكلامية والمقدمات والنتائج المنطقية ورد على مخالفيه[٥].

(١) ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد، ص٤٧.
(٢) المواقف للأيجي، ١/ ٢٨.
(٣) شرح المقاصد للتفتازاني، ١/ ٢٩٠.
(٤) ينظر: مشكلة الذات الإلهية عند القاضي عبد الجبار، د. رابحة نعمان، ص١٢٣، بتصرف يسير.
(٥) انظر: مشكلة الذات الإلهية عند القاضي عبد الجبار، ص١١٥.

وكما ذهب المتكلمون من المعتزلة إلى هذا ذهب كذلك متكلمو الشيعة الإمامية **كالخنيزي الإمامي الذي اعتبر وجود الصانع وتوحيده مما لا يثبت إلّا بالدليل العقلي، واعتبر** إثباته بالوحي يستلزم الدور الصريح، وما وجد من أدلة نصية على وجود الصانع، ووحدانيته وعدالته ووجوب بعث الرسل، فهو تعليم وإرشاد(١). **وبنحوه قال الحلي**(٢)، وخطَّأ القزويني من أثبت وجود الله بالنقل(٣).

وقد اعتبر المتكلمون طريقتهم العقلية في النظر والاستدلال، المؤدي إلى الإيمان، هي طريقة القرآن لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ [محمد: ١٩]، ولأن هذا الطريق هو الذي سلكه الأنبياء والرسل للوصول إلى الله تعالى، وخاصموا بهذا السبيل العقلي كل منكر وجاحد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكما ورد تفصيله في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ – ٧٩].

فكان النظر هو المؤدي لليقين والإيمان، وكان جدال إبراهيم لقومه بالحجة العقلية،

(١) ينظر: الدعوة الإسلامية إلى وحدة أهل السنة والإمامية، ص١٧.
(٢) نهج الحق وكشف الصدق للحلي، ص٥١.
(٣) أصول المعارف لمحمد الموسوي القزويني، ص٨.

وبها وصل إلى البراءة من شركهم مع الله ما لا ينفع ولا يضر ولا يثبت على حال، بل هو متغير متقلب ينتهي إلى الزوال، والحدوث والتبدل والانتقال.

ولا خلاف في الدليل الذي استدلوا به، ولا في المدلول الذي وصلوا إليه، ولا في وجه الاستدلال، إذ يُسلَّم لهم بهذا كله وإنما يقع النزاع والخلاف معهم في أمور:

الأول: جعل النظر والاستدلال على طريقة عقلية جدلية تبدأ بالمقدمات وتنتهي بالنتائج، بصيغ كلامية فيها من التعقيد ما لا يدركه كثير من العامة وبعض الخاصة من العلماء وطلبة العلم، وتكليف الأمة بما لم يكلفها ربها سبحانه واعتبار المغالين -في الاتجاه العقلي المعتدين به فقط- أن النقل فرع عن العقل؛ لأنه الأساس الذي يسبق والوحي لاحق. وقد أنكر **ابن رشد ذلك بقوله:** "إن مشكلة البرهنة على وجود الله لأكثر يسراً من أن ينتحل المتكلمين[1] لحلها طريقة الجوهر الفرد، ولو رجع هؤلاء إلى المصدر الأول لديهم – أي القرآن- لوجدوا في أدلته عناء، ولرحموا عقول العامة، ولما كفلوهم ما لا يطيقون"[2].

الثاني: حصرهم للأدلة في النظر فقط.

حصر المتكلمون الأدلة على وجود الله في النظر والبرهان الكلامي الذي يبدأ فيه المتكلم من أقوال الخصوم كمقدمات اتفق عليها الطرفان، ثم يبرهن على تناقضها وتضمنها للوزام باطلة وهي النتائج، فيصل بفساد النتيجة إلى فساد المقدمات، وتسمى عندهم طريقة التمانع[3].

والثالث: حصرهم أدلة النظر في دليلين عقليين:

(١) هكذا وردت والصواب "المتكلمون".
(٢) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد الحفيد، ص١٥.
(٣) انظر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، د. محمد علي أبو ريان، ص١٣٢.

الدليل الأول: دليل الأعراض وحدوث الأجسام، ويتلخص في أن الأجسام تتألف من الجواهر والأعراض وهما حادثان، فالأجسام حادثة، وكل حادث لابد له من محدث يحدثه، وهذا المحدث هو الله تعالى لاستحالة وجود حادث بلا محدث(١).

والدليل الثاني: دليل الإمكان والوجوب، ويتلخص في تقسيم الموجودات إلى ما هو ممكن الوجود، وواجب الوجود لذاته، والممكن يفتقر إلى غيره في الإيجاد؛ والواجب يفتقر إليه غيره في الإيجاد، وليس في الوجود سوى الله المستحق لوصف واجب الوجود لذاته؛ لأنه كان ولم يكن قبله شيء، ووجوده الذاتي غير مسبوق بالعدم، وما سوى الله وهو العالم كان بعد أن لم يكن، ووجوده الحادث بعد عدمه يدل على أن هناك من رجح وجوده الكائن بعد أن لم يكن، ولا مرجح لوجوده إلا الله(٢).

ثانياً: طريقة السلف في إثبات وجود الله تعالى

ويرى السلف ومن نهج نهجهم من الخلف، أن طريق إثبات وجود الله مسطورة في القرآن الذي اشتمل على مخاطبة الفطرة، ومخاطبة الحس بالدعوة المتكررة إلى التفكر والنظر، والدعاء عند الشعور بالحاجة والخطر؛ والاستجابة العاجلة منه سبحانه للمضطرين من عباده الداعين، وكذلك تضمن القرآن الكريم مخاطبة العقل؛ لإثبات قضايا الإيمان، وعبّر العلماء عنها بأدلة الإيمان الفطرية، والحسية، والعقلية، وكلها ضمن الأدلة الشرعية لتقرير كبرى الحقائق الإيمانية، وهي وجود الله وتوحيده سبحانه وتعالى.

والمقصود بطريق الفطرة في الاستدلال على وجود الله تعالى، أن كل مخلوق قد فُطر على الإيمان بخالق، من غير سبق تفكير أو تعليم. ولا يصرف عن مقتضى هذا الشعور الفطري

(١) انظر: شرح المقاصد للتفتازاني، ١/ ٣٢٧، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للباقلاني، ١/ ٤١.
(٢) انظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص ٦٠.

العميق المتأصل في النفس البشرية إلا ما يطرأ عليها من اجتيال شيطاني، أو صارف شهواني، دافعه الكبر وبطر الحق، والجحود بالمعبود مكابرة وإعراضاً. ودليل ذلك قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: (خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)(١). وقوله ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. والفطرة: إحساس قهري يجده الإنسان في أعماق نفسه، لا يستطيع أن يتجاهله، ولا يحتاج إلى أدلة وبراهين لالتماسه في نفسه، وقد لا يستطيع الإفصاح عنه بالأحرف المجردة والكلمات المنطوقة. ويعد هذا الشعور الفطري من أقوى الأدلة الصادقة على وجود الله تعالى إن لم يكن أقواها. فإحساس الإنسان بوجود الخالق، وتلهفه دائماً لمعونته وإمداده، وشعوره بحاجة هذا الكون الكبير إلى قدرته وعلمه وحكمته، هو إحساس فطري صادق وهو من أكبر الأدلة على وجوده سبحانه والدليل الفطري محل تسليم جميع الفرق الإسلامية، بمختلف مدارسها ولم ينازع في دلالته أحد من المسلمين، وإن نازع البعض في مرتبته بين الأدلة.

وإن غياب الفطرة أحياناً، واختفاء ندائها في ساعات الغفلة واللهو والرخاء لا يعني ذهابها بالكلية؛ لأنها أصيلة في النفس البشرية، سرعان ما تبدو وتظهر عند الشدائد والمخاطر التي تُحدق بالإنسان أحياناً؛ فيطبق عليه اليأس من كل شيء خلا الله تعالى، لإحساسه بعجز جميع الكائنات وافتقاره في هذه اللحظات لربه عز وجل القادر على كل شيء القاهر فوق

(١) رواه مسلم في صحيحه، من حديث عياض بن حمار المجاشعي، ٤/ ٢١٩٧، حديث رقم ٢٨٦٥.
(٢) رواه البخاري في صحيحه، من حديث أبي هريرة، ١/ ٤٥٦ حديث رقم ١٢٧٠، ورواه مسلم في صحيحه، من حديث أبي هريرة، ٤/ ٢٠٤٧، حديث رقم ٢٦٥٨.

عباده، وهنا يسمع الإنسان صوت الفطرة ينبعث من نفسه ويُلازم أنفاسه اللاهثة وراء بصيص أمل بالنجاة.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس الآية:٢٢].

قال الإمام الرازي: "إن الإنسان إذا وقع في محنة شديدة، وبلية قوية، لا يبقى في ظنه رجاء المعونة من أحد؛ فكأنه بأصل خلقته، ومقتضى جبلته، يتضرع إلى من يخلصه منها ويخرجه عن علائقها وحبائلها، وما ذاك إلاّ شهادة الفطرة بالافتقار إلى الصانع المدبر"(١).

والمشرك منحرف في فطرته ومع ذلك الانحراف الطارئ على أصل الفطرة إلاّ أن رياح العواصف عند هبوبها، تجعله بالإلجاء والاضطرار يعود إلى أصل فطرته السليمة، في موضع يوقن فيه بالهلاك؛ فيتضرع إلى الواحد الديان سبحانه، وينسى ما سواه ممن أشركهم معه، فهذا هو حال المشرك إذا أصابه البلاء الذي لا يقدر أحد على دفعه، والشدة التي لا يقدر أحد على رفعها، والغمة التي لا كاشف لها من دون الله، فيقبل على مولاه موحداً له في الالتجاء والدعاء.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً﴾ [الإسراء:٦٧].

وإذا قيل: الدلالة على وجود الله شرعية، فالمقصود بها ما أنزل من وحي الله على رسل الله إلى أهل الأرض وأممها؛ لهدايتهم وإرشادهم، ومخاطبتهم بما تعقله ألبابهم، وتنشرح به صدورهم، وتتبدد به شبهاتهم، وتنوعت أدلة الشرع في إثبات وجود الله؛ بتنوع الناس

(١) التفسير الكبير، ١٩/ ٧٣.

واختلاف مستوياتهم، وتباين قدراتهم، ولم يغفل الرسل والأنبياء العقل، ولا الفطرة، ولا الحس، وما من نبي من الأنبياء إلا وقد أيده الله بآيات بينات واضحات، تقوم بمثلهن الحجة البالغة لله تعالى على خلقه، وما إيمان أمم الأرض برسلها وحفظها لموروث الكتاب المنزل، والتعاليم الإلهية التي ذهب منها ما ذهب وبقي منها ما بقي إلا دليل على وجود الله تعالى الذي بعث هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب والميزان بالقسط، وأيدهم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، والمعجزات الباهرة التي قهرت جحود المنكرين، وظهرت ظهور الشمس في رابعة النهار، وكانت سبب تحولٍ في سلوك المعادين للرسل المتحدين لهم المحاربين لأتباعهم، فنقلتهم بينات الرسالة من كفار متحدّين إلى أتباع موحدين.

وجاء القرآن الكريم يخاطب العقل السليم، والفطرة البشرية السوية، خطاباً مباشراً، واضحاً سهلاً، خالٍ من التعقيدات الكلامية، والمقدمات والنتائج الجدلية، ليحسم الأمر مع الفطرة إن هي بقيت على صفائها ونقائها، ولم تكدرها شوائب الإعراض كبراً وجحوداً.

فإن لم تستجب الفطرة المشوهة لنداء القرآن، وتذعن لخطاب الإيمان، خاطب القرآن في الإنسان عقله بقوة إقناع دامغة، وحجج للريبة قاطعة، وللشك مانعة، ولأنوار الهدى مشرقة ساطعة، تستنير بها العقول، وتهتدي بها النفوس.

كل ذلك في القرآن بعبارات الجزالة والإيجاز بعيداً عن الإطالة والإلغاز، فما على المرء إلا أن ينظر ويتأمل ويتدبر في طريقة القرآن وأسلوبه البديع ليستفيد منه في تثبيت إيمانه وتقوية إيمان الأمة، وإقناع المعاندين الجاحدين وإقامة الحجة البالغة عليهم. قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام :١٤٩]. ففي الآية دلالة على أنه سبحانه المتكفل بإقامة الحجة الكاملة التامة على خلقه، البالغة إليهم دون لبس أو غموض أو تعقيد،

المفهمة لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد، المفحمة لمن تأبّى واستكبر وأعرض عن الحق وأدبر.

وسمى الله تعالى أدلة إثبات وجوده ووحدانيته وتوحيده بالبينات من البيان والوضوح، وسمّاها بالحجة؛ لما فيها من الدليل والبرهان القاطع للجدل والخصومة، ووصفها بالبالغة لبيان أنها قد بلغت مراد الله تعالى في ثبوتها على الخلق فيما جُعلت حجة فيه، وسيقت لأجله وبها انقطعت أعذار من بلغتهم.

"فلله الحجة البالغة على الناس: أي التي تنقطع عندها معاذيرهم، وتبطل شبههم وظنونهم وتوهماتهم، والمراد بها الكتب المنزلة، والرسل المرسلة، وما جاءوا به من المعجزات"(١).

فالكتب المنزلة والرسل المرسلة المؤيدة بالوحي المعجز، والخوارق الخارجة عن العادة فيها أكبر دلائل الوحدانية وإثبات وجوده سبحانه وتعالى.

ثالثاً: التوفيق بين طريقة السلف وطريقة المتكلمين

نخلص مما سبق أن مصادر التلقي والاستدلال في إثبات وجود الباري سبحانه، قد قامت على التسليم في الأصل الإجمالي الكلي، واعترتها الجدلية في الفرع التفصيلي الجزئي، فأثمرت اتجاهين رئيسين، وطريقتين أساسيتين: **الأولى**: طريقة السلف التي قدمت النقل ووأمت بينه وبين العقل، و**الثانية**: طريقة أهل الكلام التي قدمت العقل وجعلته أساسًا لتقبل النقل.

وهذا الانقسام أحدث إشكالية وخلافاً قد يكون في مؤداه وثمرته لفظياً وقد يكون معنوياً، ولا يتضح إلاَّ بالدراسة الفاحصة الشاملة لمختلفة الجوانب، والمتناولة لآحاد

(١) فتح القدير للشوكاني، ٢/ ٢٥٦.

المسائل للخروج بنتيجة مستقلة في كل مسألة. وفيما يتعلق بإثبات وجـود الله تعـالى، هـل هنالك تعارض بين المنهجين المشار إليهما في المطلبين السابقين؟ يجاب عن هذا التساؤل عقب هذا المثال:

لو أن رجلاً خال الذهن عن إله معبود يعتقد وجوده، فما هو السبيل لإقناعه أن يصدق بوجود إله خالق لهذا الكون يستحق العبادة وحده دون سواه؟

فمما تتفق فيه الإجابة بين أصحاب الطريقتين العقلية والنقلية القول بأنه لابد قبل مخاطبته بآيات الله القرآنية أن يسبق ذلك التصديق بوجود الله، والإيمان بالرسل وصدق الرسول المخْبِر عن الله وصدق ما جاء به من الرسالة، وهنا يأتي دور العقل في فهم وإدراك الآيات والأدلة والبراهين الدالة على وجود إله خلق ثم أرسل الرسل المبلِّغة، وأنزل الكتب الهادية إليه سبحانه وتعالى.

فأساس إثبات وجود الله تعالى عقلي جاء به النقل ودل عليه وأرشد إليه؛ لأنه لا يمكن فصل دليل العقل عن النقل؛ لما قد يتوهم من أن النقل مجردٌ عن البراهـين العقليـة، أو أن العقل يستغني بذاته عن هداية الله له بإرسال الرسـل وإنـزال الكتـب. ويمكـن القـول بعبارة أخرى إن أدلة وجود الله عقلية وردت في النقل، وليس في هذه المسألة فيما يظهر لي من خلاف بين مدرسة المتكلمين أصحاب الاتجاه العقلي ومدرسة السلف أصحاب الاتجاه النقلي، ولا بد أن يعلم ضرورة أن كلا الاتجاهين يأخذ بالعقل والنقل، ولا يصح بحال أن ينسب إلى أحدهما تركه للعقل أو النقل مطلقاً في قواعد ومناهج الاستدلال؛ خاصة فيما يتعلق بإثبات وجود الله ووحدانيته.

"والدليل النقلي ليس قسيماً- كما قد يُظن- للدليلين العقلي والفطري، إنما هو مشتمل عليهما، فكل دليل نقلي هو في ذاته عقلي، وإنما سُمِّي نقلياً باعتبار وروده في الشرع منقولاً

إلينا، أو هو لافت إلى الفطرة المركوزة في أنفسنا، مثير لها. في حين ليس كل دليل عقلي نقلياً، فضلاً عن أن يكون دليلاً صحيحاً أو على الأقل نافعاً"[١].

ولكم طال الجدل واحتدت الخصومة بين هاذين الاتجاهين العاملين للإسلام الساعيين للذب عنه، وإن اختلفت طرائقهم، وتنوعت أساليبهم إلاَّ أن أحدهما لم يعذر الآخر فيما أخطأ فيه، بل تجد أن المتكلم ينبز الأثري السلفي بإهماله العقل وعدم إعماله، والأثري السلفي ينبز المتكلم بإهماله النقل وعدم العمل بالنص، وليس الأمر صحيحاً بهذا الإطلاق، بل لا بد من إنصاف كل للآخر، ولا بد من تقييد الكلام في مواضعه التي تجاوز فيها أحدهما العقل وجمد على ظاهر النص المرجوح دلالة، وتجاوز فيها الآخر النص الظاهر الراجح في دلالته واشتط في استعمال العقل فيما لا مجال للعقل فيه.

يقول الأستاذ/ د. حسن محمود الشافعي: "ويقرر أكثر المتكلمين من متقدمين ومتأخرين، وخاصة الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة، أن الدليل العقلي مقبول في مسائل العقيدة إلى جانب الدليل السمعي، وأن المعارف الكلامية تستمد من العقل والنقل جميعاً، وربما بالغ البعض منهم في الاعتماد على الدليل العقلي"[٢].

وجُل علماء الأمة من المتأخرين[٣]، اشتغلوا بعلم الكلام وسخروه للدفاع عن الإسلام رغم ذم السلف لهذا العلم؛ إلاَّ أن الخلف اجتهدوا ورأوا ضرورة الخوض فيه لإزالة الشبهات التي انتقلت مع الفتوحات الإسلامية، والانفتاح الحضاري على الفرس والروم، وحركة الترجمة الواسعة التي أدخلت على المسلمين علوماً جديدة وكانت هذه العوامل من أهم الأسباب التي دفعت بالأعلام من المتأخرين للخوض في علم الكلام.

(١) رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر للشيخ مرعي الكرمي، ص٣٢٩.
(٢) المدخل إلى دراسة علم الكلام، د. حسن الشافعي، ص١٣٨.
(٣) بعد القرن الثاني الهجري.

والعالم المتكلِّم هو الذي يتخذ القواعد الإيمانية أصولاً في منطلقاته الكلامية، ثم يبني عليها الأدلة العقلية، وقد ينضبط سيره، وقد يتعثر في خطاه، بحسب منهجه في السير وارتباطه بالنص وتمسكه بالوحي؛ فالبحوث الكلامية الإسلامية تختلف عن البحوث الكلامية الفلسفية المجردة عن الوحي.

"البحوث الكلامية بدأت معتمدة على العقل والنقل معاً، وإن كانت نتائج الاستدلال العقلي لا تعتمد أفكاراً نهائية إلاّ إذا صادق عليها الشرع"(١).

بهذا الضابط الذي أشار إليه الدكتور الشافعي في عبارته يمكن القول بأن هذا يوفق ويؤلِّف ويضيق دوائر الاختلاف.

وتفرع عن هذه المسألة القول في أول واجب على المكلف هل هو النظر أو معرفة الله، ويكون مقصود من قال معرفة الله أي بالفطرة، **فقال ابن تيمية** في بيان الخلاف في هذه المسألة: "ومما يبين أصل الكلام في هذا المقام، أنه قد تنازع الناس في أصل المعرفة بالله، هل تحصل ضرورة في قلب العبد؟ أو لا تحصل إلا بالنظر، أو تحصل بهذا تارة وهذا تارة.

فذهب كثير من أهل الكلام من المعتزلة، والأشعرية، ومن وافقهم من الطوائف من أصحاب أحمد، ومالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وغيرهم إلى أنها لا تحصل إلا بالنظر، وهؤلاء يقولون في أول واجب على العبد هل هو النظر والاستدلال المؤدي إلى معرفة الله، أو المعرفة، وقد تنازعوا في ذلك على قولين ذكرهما هؤلاء الطوائف من أصحاب أحمد وغيرهم، **والنزاع لفظي** فإن النظر واجب وجوب الوسيلة، من باب ما لا يتم الواجب إلا به، والمعرفة واجبة وجوب المقاصد، فأول واجب وجوب الوسائل هو النظر، وأول واجب وجوب المقاصد هو المعرفة"(٢).

(١) المدخل إلى دراسة علم الكلام، ص١٣٧.
(٢) درء التعارض، ٧/ ٣٥٢-٣٥٣.

المطلب الثاني: منهج القرآن في الاستدلال بالآيات الكونية لإثبات وجود الله

ولما كان هذا القرآن الكريم هو آخر كلمة الله إلى أهل الأرض، فقد جمع من الدلائل ما يكفي لإثبات وجود الله تعالى وتوحيده، ولما كان الإنسان متغير النظرة إذا ترك يفكر فكر بلا ضوابط وأخذته الحيرة، وتعتريه حالات الضعف والقصور، وحالات من التأثر بالموروث الذي قد يجري فيه مجرى الدم، لأجل ذلك "كان لابد للمنهج القرآني من أن يضع الأساس المتين للتفكير السليم الموجّه إلى ما يهدي العقل البشري وينير سبيله، ويفجر طاقته"(١).

فإعمال العقل وعدم إهمال النظر والتأمل في الكون منهج قرآني، أما النظر والتأمل في المنطقيات الجدلية المتباينة المحتملة للنقض فهذا هو المذموم.

وقد "جاء الأسلوب القرآني بأقوى البراهين إقناعاً وأشدها رسوخاً في النفس مع مراعاة أحوال الناس زماناً ومكاناً، وإمكانات وقدرات عقلية وذهنية فعرض صحائف الكون كلها على الإنسان، ثم طالب العقول بقراءتها، وتأملها وتدبر ما فيها من آيات القدرة، بالاعتماد على القضايا الواضحة الجلية، المؤلفة من المقدمات البديهية الفطرية التي تعرض نفسها على عقول العامة، ولا يزداد الخاصة بإمعانهم فيها إلا تصديقاً وقوة إيمان، ثم يوجه المنهج القرآني النظر العقلي وجهة مستقيمة صالحة بما وضع له من القواعد والحدود، فيتجنب أسباب الانحراف، ونوازع الجموح، ثم إنه يحرك المشاعر ويستجيش في الإنسان ما كمن من عواطف الخير وبواعث الرغبة في الحق"(٢).

ومن خلال آيات القرآن المسطورة(٣)، المرشدة إلى آيات الله المنظورة في هذا الكون

(١) انظر: علاقة صفات الله بذاته، د. راجح عبد الحميد الكردي، ص٢٨.
(٢) مدخل نقدي لدراسة علم الكلام، د. السنهوري، ص٩٤-٩٦ بتصرف.
(٣) والتي قد تصل إلى تسعمائة آية أو كثر.

الفسيح، نجد القرآن يأخذ بزمام العقل والفطرة في جولات يرتاد بها آفاق السماء، وجنبات الأرض، وأعماق البحار، ليكشف لنا الآيات الدالة على وجود الله سبحانه ووحدانيته، وأكتفي هنا بالإشارة إلى آيات منها: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُّ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام :٩٥-٩٩].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللهُّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ وَاللهُّ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُّ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٣-٤٥].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ [الفرقان:٤٥-٤٩]، وغيرها من سور القرآن التي عدها العلماء بالمئات لا العشرات.

فدليل النظر والتأمل في الآيات الكونية المرئية محل اتفاق وتسليم بين أهل القبلة بمختلف طوائفهم وفرقهم، ولم ينازع في دلالته ولا في الاستدلال به أحد، وكان هذا الدليل هادياً للعلماء الأقدمين والمعاصرين إلى إعجاز القرآن الكريم فيما أخبر به من دقائق الخلق وعجائب الصنع والتركيب الإلهي البديع.

الخاتمة

وفيها أهم النتائج والتوصيات

أولاً: نتائج البحث

١. ذهب أهل السنة إلى أن العقل والنقل الأصل فيهما التوافق، والفطرة لا تخرج عنهما، وكانت دلالة هذه الأدلة على وجود الله متظافرة غير متنافرة.

٢. أهل السنة لا ينازعون في تقدم دلالة العقل على النقل لمعرفة صدق الرسل والأنبياء، ثم يكون التسليم المطلق للوحي بعد ذلك ولا يتقدم العقل النقل بل يمضي في ركابه.

٣. ذهب المخالفون لأهل السنة إلى تقديم العقل على النقل في الدلالة على وجود الله تعالى، بالدلالة على صدق الرسل والأنبياء، وصدق ما جاءوا به من البراهين والبينات الدالة على رسالتهم، وعلى من أرسلهم، وحصروا الدلالة في النظر ثم في دليل الأعراض وحدوث الأجسام، ودليل الإمكان والوجوب، وهو ما لا يسلم به أهل السنة.

٤. العقل ليس قسيما للشرع بل يندرج ضمن أدلته المعتبرة، وكذلك الفطرة والحس، وطريقة القرآن الكريم لم تهمل العقل بل استثارت مداركه للوصول للإيمان.

ثانيًا: التوصيات

يوصي الباحث بضرورة دراسة مصادر التلقي والاستدلال، والوقوف على مواطن التسليم ومواطن الجدل عند الفرق والمذاهب، وبيان أثر الخلاف في مفردات المسائل، للتفريق بين الخلاف اللفظي والخلاف الحقيقي، وما يترتب على ذلك الخلاف من أثر على قضايا العقيدة الأصلية والتفصيلية.

المراجع والمصادر

B.S.t. Hilaire, Mahomet et le Coran, P xxxiv

Laresusse duxxeme siecle, article: Religion

Max Nodau, Reponse au Mercure de France, Paris, 1908

الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

الإيضاح في أصول الدين لأبي الحسن علي بن الزاغوني (المتوفى: ٥٢٧هـ)، تحقيق عصام السيد محمود، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. ط ١، ١٤٢٤هـ.

الإشارات والتنبيهات، لأبي علي بن سينا تحقيق: د.سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة ط الثالثة، ١٩٨٣م.

أصول المعارف لمحمد الموسوي القزويني، بيروت ط الأولى.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية، تحقيق ابن قاسم، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، ط١، ١٣٩٢هـ.

تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، د. محمد علي أبو ريان، دار الجامعات المصرية، ط ٢، ١٩٧٤م.

التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

تلبيس إبليس، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق: د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل لمحمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ.

حاشية السندي على النسائي لنور الدين بن عبد الهادي أبو الحسن السندي (المتوفى سنة: ١١٣٨)، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الرياض، ١٣٩١م.

الدعوة الإسلامية إلى وحدة أهل السنة والإمامية، ط ١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

دلائل التوحيد، محمد جمال الدين القاسمي، تعليق خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩١م.

رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر للشيخ مرعي بن يوسف الكرمي، تحقيق ودراسة/ الوليد بن مسلم، مكتبة ابن عباس، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ.

شرح أسماء الله الحسنى للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري، دار الحرم للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ.

شرح المقاصد في علم الكلام لسعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتا زاني، دار المعارف النعمانية – باكستان ط ١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

صحيح البخاري لأبي عبد الله البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق د. مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

علاقة صفات الله بذاته، د. راجح عبد الحميد الكردي، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط الثانية، ١٤٠٩هـ.

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد ابن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

المدخل إلى دراسة علم الكلام، د. حسن الشافعي، المطبعة الفنية، مكتبة وهبة، ط ٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

مدخل نقدي لدراسة علم الكلام، د. محمد الأنور السنهوري، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

مشكلة الذات الإلهية عند القاضي عبد الجبار، د. رابحة نعمان توفيق عبد اللطيف، جامعة الكويت، لجنة التأليف والتعريب والنشر، ط الأولى، ١٩٩٧م.

المواقف لعضد الدين الإيجي، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

نهج الحق وكشف الصدق للحلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.